منهجيّة العلاّمة الطباطبائيّ التفسيريّة و تطبيقاتها على إعجاز القرآن في ضوء علم اللغة التوحيدي

سماحة السيد الاستاذ المتمرس الدكتور محمد علي الحسيني

دكتوراه في علم اللغة التطبيقي من جامعة سنت اندروس (St Andrews) بريطانيا؛ استاذ في قسم اللغات- جامعة تربيت معلم طهران (خوارزمي)؛ رئيس مركز التعليم و الإبحاث في مسجد الإمام الرضا (عليه السلام)؛ طهران؛ ايران

خلاصة البحث:

لقد عالجت هذه المقالة المتواضعة (منهجيّة) العلاّمة الطباطبائي قدس سره في تفسير القرآن عموماً، مطبّقةً هذه المنهجيّة على موضوع (إعجاز القرآن) و مركّزةً على (الآيات الخمس) من سورة البقرة (٢١ -٢٥). و قد استَنتَجَت منهجه؛ بأنّه: (تفسير القرآن بالقرآن) أو: (التفسير الموضوعي التوحيدي) الذى يُعنى بتفسير الآيات (ذات الموضوع الواحد) طائفةً طائفةً، و إن كان يتبّع ظاهراً التفسير (التجزيئيّ) مبتدأً من باء البسملة إلى سين النّاس حسب ترتيب الأجزاء الثلاثين.

و يقرّر بأنّ منهجه هذا يشبه منهج الأوائل من المفسّرين؛ مستشهداً بكلام الإمام علي عليه السلام، بقوله: «يصف القرآن على ما في النهج ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض -الخُطبة -». و قد نقد المناهج الّتي استدلّت: (من كلّ شيءٍ على كلّ شيءٍ)، و تحميل ما أنتجته الأبحاث العلمية و الآراء الّتي

لاتستند إلى مصادر الوحى الإلهي. وقد فسّر القرآن بأسلوب (توحيدي موضوعي) يختلف عن سائر التفاسير قبله؛ و عرّف التفسير بتعريف جديد –مامضمونه –: «شرح للأذهان و تنوير لعقل الإنسان» و ليس بياناً للبيان أو تبياناً للتبيان –كما يدّعي القرآن لنفسه و هو الحقّ –و إذا ما فسّر القرآن بالروايات الواردة عن المعصومين ﷺ فهو أيضاً تفسير للقرآن الصامت بالقرآن الناطق. و ذلك بيان للمصاديق، و تأويل في التطبيق.

الكلمات المفتاحية:

الإعجاز، التأويل، التفسير التجزيئيّ، التفسير الموضوعيّ، السياق، علم اللغة التوحيدي، نظم القرآن.

المقدمة:

قبل معالجة موضوع إعجاز القرآن[1] في التفسير و لاسيّما في (الميزان) و منهجيّته، لابدّ لنا من أن نعرض باختصار إلى ما امتاز به هذا التفسير الفريد؛ الذى هو بحقّ كاسمه الميزان بين سائر التفاسير القرآنيّة على كثرتها الكاثرة منذ صدر الإسلام إلى يوم الناس هذا. فقد وضع العلّامة تلكم التفاسير (جُملة) في ميزان النقد و الانتقاد مبيِّناً الهَنات و النِقاط الإيجابيّة فيها معاً.

موضوعات المقدّمة:

و قد عرض صاحب الميزان في (مقدّمته) لطبقات المفسّرين و ذكر بعض أعلامهم المشهورة عبر العصور، و سار سيراً سُجُحاً مستعرضاً مذاهبهم المتنوّعة و مشاربهم المختلفة في موضوع التفسير و علوم القرآن بإجمال، مبتدئا بالطبقة الأولى من الصحابة، ثُمَّ الطبقة الثانية من التابعين و هكذا إلى يومنا العتيد، و أشار إلى البحوث المختلفة في المقام من أمثال (البحث الكلامي) و (البحث الفلسفي) و إلى أصحاب المشارب

(١) الإعجاز من مادة (عجز): «و العجز –بسكون الجيم –التأخُّر عن الشئ مطلقاً و صار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشئ و هو ضد القدرة» مفردات الراغب «و أعجزنّي: أي فاتني و عجزت عن طلبه و إدراكه و قصرت و تأخّرت عنه» لسان العرب (المادة) و من المجاز (ثوبٌ عاجزٌ: قصير)، اساس البلاغة (المادّة).

المتنوّعة من (المحدِّثين) و (المتكلِّمين) و (الفلاسفة) و (المتصوِّفة) و أضرابهم.

و نقد كلَّ فرقه من هذه الفِرق ولاسيّما أولئك الذين أمعنوا في «الاستدلال من كلِّ شيءٍ على كلِّ شيء حتّى آل الأمر إلى تفسير الآيات بحساب (الجُمَّل) و ردّ الكلمات إلى الزُبر و البيّنات و الحروف النورانيّة و الظلمانيّة إلى غير ذلك»[٢] من العلوم الغريبة و المشارب العجيبة، و التي صبغت تفاسير أصحابها بصبغة خاصّة طغت على سائر مناهج التفاسير الأخرى من حيث يحتسبون و من حيث لايحتسبون. و من أشهرها التفسير بالمأثور من الحديث الشريف.

بيان منهجيّة العلّامة:

فقد اختار العلّامة لنفسه بعد ذلكم النقد (المنهج الموضوعي: التوحيدي) إضافة إلى الالتزام عموماً بالتفسير (التجزيئيّ) حسب ترتيب الأجزاء و السّور و الآيات، و صرّح في (مقدمّة الميزان) بأنّ منهجه هو: (تفسير القرآن بالقرآن) معتمداً المنهج الذي اتّبعه أئمة أهل البيت عليهم السلام و طائفةً من أعلام الصحابة و التابعين؛ أمثال ابن عبّاس[٣] تلميذ الإمام علي عليه السلام الذين انتهجوا منهجهم في تفاسيرهم؛ و بذلك نراه يفسّر (الآيات بالآيات) تفسيراً (توحيدياً موضوعياً) و بشكل مستدلّ و مفصّل مستوعب؛ بعكس ما كانت عليه بدايات التفسير من (الاختصار) و «الاستدلال بآية على آية و كذلك قليل من التفسير بالروايات المأثورة»[٤].

الفرق بين التفسير و التأويل:

و هو لا يغفل تفسير (الآيات بالروايات) الواردة عنهم عليهم السلام و عن غيرهم مؤكِّداً على أنّ بعضها من بابِ تبيان (المصاديق) و التأويل الذي يؤول إليه معنى الآيات؛ غير أنّه يعضد منهجه تفسير (الآيات بالآيات) هذا مستنداً إلى أمثال ما ورد في (نهج

(٢) مقدّمة الميزان –ص ٧.
(٣) ينظر المقباس، تفسير ابن عبّاس (المقدّمة).
(٤) الميزان –ج١ –ص ٥.

البلاغة) و سائر المصادر المعتبرة بقوله: «وقال عليٌّ عليه السلام: يصف القرآن على ما في النهج: ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض -الخطبة -»[٥].

و يخلص أيضاً إلى أنّ تفسير (الآيات بالروايات) المأثورة و الواردة عنهم عليهم السلام لايخرج عن منهجه التوحيدي الموضوعي هذا، أى: (تفسير الآيات بالآيات) فهو أيضاً يرى أنّ (الروايات) المروية عنهم (كقرآن ناطق يفسّر القرآن الصامت) و بذلك يكون المنهج المتّبع هو هو عينه[٦].

و قد ميّز العلّامة الطباطبائى قدس سره في (ميزانه) بين اصطلاحى: (التفسير) و (التأويل). كما بحث بعد تفسير كلّ مجموعة من الآيات ذات (الموضوع الواحد) مطالب مختلفة بعد عرضه للبحث (الروائيّ) المرتبط بتلكم الآيات المسوقة لهدف توحيدى مشترك، تحت عنوانات شتّى من قبيل: (بحث فلسفي) و (بحث اجتماعي) و (بحث تاريخي) و (بحث علمي). و قد أكّد في (البحث الروائي) ذي الصبغة التأويلية التفسيرية على أنّ تلكم الروايات و لاسيّما الواردة عن أهل البيت عليهم السلام هي بمثابة (المصداق) و (التأويل) و ليس هي من قبيل التفسير المصطلح.

مجمل المعارف التي بحثها العلّامة في المقدّمة:

لقد بحث العلّامة الطباطبائى في تفسيره الميزان معارف قرآنية امتاز بها، و أجْمَلَها في (مقدمته) على اختصارها النسبي بأنّها تتعلّق بأسماء الله و صفاته و أفعاله و معارف الأمرو الخلق و معارف الوسائط و المجاري و الوسائل و معارف اللوح و القلم و أمّ الكتاب و المعارف المتعلّقة بالإنسان قبل هذه الدنيا و العوالم المتقدّمة و المعارف المتعلّقة بالإنسان في هذه الحياة الدنيا الّتي هي دار ممرّ و مجاز و المعارف المتعلّقة بعالم البرزخ و المعاد و يوم القيامة و الحساب و الجنّة و النّار بعد هذه الدنيا و آخرها المعارف المتعلّقة

(٥) الميزان -ج١ -ص ١١.

(٦) فقد جاء في المأثور من الأحاديث و الأدعية و الزيارات: (أنّ المعصومين من أهل البيت عليهم السلام هم المفسّرون و العالمون بالتأويل: «لايعرف القرآن إلّا من خوطب به»، «السّلام عليك أيّها العالم بالتأويل»، مفاتيح الجنان، زيارة الإمام الحسن عليه السلام.

بالأخلاق الإنسانية[٧] و مناهج (السير و السلوك) العرفاني و هو الفيلسوف المتكلّم و الفقيه العارف و الجامع بين المعقول و المنقول.

و عادة ما يتناول هذه المعارف العالية و الحكمة المتعالية متأثراً بصدر الدّين الشيرازي (ملا صدرا)[٨] بعد مجموعات من الآيات التي يجمعها الغرض الواحد تحت عنوان مصطلح (بيان)[٩].

و هذه المعارف المتعالية و إن كان قد تناولها بعض المفسرين من مختلف المشارب و المذاهب من قبله (مجتمعين) غير أنّه تفرّد بفكرة فاردة رائدة -على بساطها ظاهراً- بتساؤل منطقيّ علميّ؛ مامضمونه أنّ حقيقة التفسير: هي (بيان) معاني الآيات و السور و توضيح معاني جميع القرآن. و القرآن نفسه يدّعي -و هو الحقّ -بأنّه (بيان) و (تبيان) و (نور) و ما إلى ذلك من عبارات؛ فكيف يصحّ أنّ يحتاج البيان إلى بيان و التبيان الى تبيان و النور إلى تنوير؟!.

و يستشهد العلّامة على هذا الأمر بالآيات الكثيرة التي تُعرّف حقيقة القرآن بأنّه ﴿ بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾[سورة آل عمران: ١٣٨] و ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[سورة النحل: ٨٩] و ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[سورة النساء: ١٧٤] ثمّ يعرض لهذا التناقض الظاهري: apparent paradoxمحلّلاً و مجيباً فيقول: «و حاشا أن يكون القرآن تبياناً لكلّ شئ و لايكون تبياناً لنفسه»، و قال الله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[سورة البقرة: ١٨٥] الآية، و كيف يكون القرآن هدىً و بيّنةً و فرقاناً و نوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون و لا يكفيهم في احتياجهم إليه و هو أشدّ الاحتياج!. و قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا

(٧) تنظر مقدّمة الميزان -ص ١ -٢.

(٨) تنظر الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة، ج ١، المقدّمة، ط. (انتشارات بنياد حكمت اسلامى صدرا).

(٩) تنظر هذه المعارف و الأبحاث القرآنية في جميع أجزاء الميزان، بعد عرضه للبحث الروائى و تفسير للآيات ذات الموضوع التوحيدى العامّ.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[سورة العنكبوت: ٦٩] الآية. وأيُّ جهاد أعظم من بذل جهد في فهم كتابه؟!. وأيُّ سبيل أهدى إليه من القرآن»[١٠]؟!.

حلُّ التناقض الظاهريّ:

و بعد ذلك يحلُّ هذا التناقض الظاهرى: apparent paradox ببراعة فائقة بأنّه يجب تفسير القرآن بالقرآن نفسه، و تفسير الآيات بالآيات نفسها؛ و هو منهجه: (التوحيدي الموضوعي) في تفسير الميزان. و إذا ما استشهد بالروايات على الآيات (تفسيراً أو تأويلاً) فهو أيضاً لايخرج عن منهجه هذا، كما أشرنا آنفاً إلى هذه النكتة المعرفية في منهجه.

و نحن نخلص من كلّ ذلك إلى هذا الجواب المقترح عنده: (التفسير: هو شرحٌ للأذهان، و تنويرٌ لعقل الإنسان) لابيان للبيان و ليس تبياناً للتبيان: ألّذي هو القرآن الفرقان.

إلماعات لغويّة توحيدية:

و من أهمّ ما نريد أن نلمع إليه هنا في هذه المقالة المتواضعة هو اهتمامه (بالدلالات اللغويّة) للمفردات و التركيبات الّتي تشبه دراساتها عنده الدراسات اللغوية الحديثة في علم اللغة المعاصر: modern linguistics ولاسيّما وفق ما نذهب إليه في منهجنا اللغوي الدلالي الّذى يبتني على (علم اللغة التوحيديّ): unithetical linguistics و كذلك وعيه العميق إلى هذه المقولة الّتي تقول: يجب ألّا نحمّل تفسير نصوص القرآن ما انتجته الأبحاث العلميّة و النظريّات و الآراء الّتي لاتستند إلى مصادر الوحى الإلهي[١١].

فنراه يحاكم مفهوم التفسير المتعارف عند المفسرين من القدامى و المحدثين الذّين (يحملّون النصّ ما لايحتمل) فيقول ناقداً و منتقداً: «هذه جملُ ما ذكروه

(١٠) مقدمّة الميزان، ص ١٠.

(١١) تنظر مقدّمة (علم اللغة التوحيديّ بين النظرية و التطبيق).

أو يستلزمه ما ذكروه... و إنّما الكلام في أنّ ما أوردوه على مسالك السلف من المفسرين أنّ ذلك (تطبيق) و ليس بتفسير؛ وارد بعينه على طريقتهم في التفسير.. . و انت بالتأمّل في جميع هذه المسالك المنقولة في التفسير تجد أنّ الجميع مشتركة في نقص و بئس النقص، و هو تحميل ما انتجته الأبحاث العلميّة أو الفلسفية من خارج على مداليل الآيات، فتبدّل به التفسير (تطبيقاً)... و كيف كان فهذا الاختلاف لم يولّده اختلاف النظر في مفهوم: (-مفهوم اللفظ أو الجملة بحسب اللغة و العرف العربيّ -) الكلمات، أو الآيات فإنّما هو كلام عربيّ مبين لا يتوقف في فهمه عربيّ و لا غيره ممّن هو عارف باللغة و أساليب الكلام العربيّ... و إنّما الاختلاف كلّ الاختلاف في (المصداق) الّذي تنطبق عليه المفاهيم اللفظيّة»[١٢]. و يستمرّ كرّاً و فرّاً على هذه الآراء الفاردة الرائدة ولاسيّما بمعالجته موضوعاً أصولياً لغوياً[١٣]: (لسانياً): linguistic تعتمده الدراسات اللغوية الحديثة في مناهجها التحليلية الدلالية: analytical methodologies حيث يوضّح ذلك بقوله: «توضيحه إنّ الأنس و العادة كما قيل يوجبان لنا أن تسبق إلى أذهاننا عند استماع الألفاظ (معانيها الماديّة) أو ما يتعلّق بالمادّة، فإنّ المادّة هي الّتي تتقلّب فيها أبداننا و قوانا المتعلّقة بها ما دمنا في الحياة الدنيويّة، فإذا سمعنا الفاظ (السماء) و (الأرض) و (اللوح) و (القلم) و (العرش) و (الكرسيّ) و (المَلك و أجنحته) و (الشيطان و قبيله و خيله و رَجِله) إلى غير ذلك، كان المتبادر إلى أفهامنا مصاديقها الطبيعيّة»[١٤].

ثمّ يأتي بشواهد من (الآيات و الروايات) و كذلك من الأبحاث اللغوية، و دلالات الالفاظ المستعملة عبر تطوّر العصور و المجتمعات، و اقتضاءات الظروف

(١٢) مقدمة الميزان، ص ٨.

(١٣) فهو يدلى هنا بدلوه في (موضوع اللغة) وأصول الفقه في قسم (مباحث الألفاظ) و هو الأصوليّ الفقيه و الفيلسوف المفسّر القرآن.

(١٤) مقدّمة الميزان، ص ٩.

الجديدة، ولاسيّما بالإشارة إلى الدلالات و (العلامات) و (العلائم): signs، و هي الّتي تبحث حديثاً في علوم السيمانطيقية: semantics، و السيميوطيقية: semiotics أو ما نصطلح عليه بعلم (السمات) توحيدياً: semiology فيقول: «و هذا شأننا في جميع الألفاظ المستعملة... فوضعنا الألفاظ (علائم) لمسميّاتها الّتي نريد منها غايات و أغراضاً عائدةً إلينا»(١٥).

و هو لايكتفي بإعطاء الفكرة اللغوية و المعاني المعجمية الّتي دعت إلى وضع المفردات في القواميس و المعجمات حسب؛ بل يذكر الأمثلة الدالّة على ما يذهب إليه نظره (اللغوي التوحيدى) بقوله: «السراج أوّل ما عمله الإنسان كان إناءاً فيه فتيلة و شئ من الدّهن تشتعل به الفتيلة للاستضاءة في الظلمة، ثم لم يزل يتكامل حتى بلغ اليوم السراج الكهربائى و لم يبق من أجزاء السراج المعمول أولاً الموضوع بإزائه لفظ السراج شئ و لا واحد. و كذا الميزان المعمول أولاً: و الميزان المعمول اليوم لتوزين ثقل الحرارة مثلا: و السلاح المتخّذ سلاحاً أول يوم: و السلاح المعمول اليوم إلى غير ذلك. فالمسميّات بلغت في التغيير إلى حيث فقدت جميع أجزائها السابقة ذاتاً وصفةً. والاسمُ مع ذلك (باق) و ليس إلّا لأنّ المراد في التسمية إنّما هو من الشئ (غايته) لا شكله و صورته. فمادام غرض التوزين أو الاستضاءة أو الدفاع (باقياً) كان اسم الميزان و السراج و السلاح و غيرها باقياً على حاله»(١٦). فهذه الوحدة في الغرض، و الملحظ الواحد في الهدف: unithetical point of view هو الذي نتبنّاه في علم اللغة التوحيدي: unithetical linguistics.

(١٥) مقدّمة الميزان، ص٩ و كذلك ينظر في الموضوع كتاب: علم اللغة التوحيدي بين النظرية و التطبيق (المقدّمة).

(١٦) مقدمة الميزان، ص٩. و قد تناول هذا الموضوع العلماء قديمًا و حديثاً و وضعت النظريات في علم الدلالة المعاصر semantics و كذلك بحث الأصوليون هذا الموضوع في (مباحث الألفاظ) و أطنبوا فيها إطناباً يكاد لا يحمد عقباه.

المفهوم التوحيدي الغائي من الكلمات:

و بهذا المفهوم التوحيدي اللغويّ: (الغائيّ) الذي يحكي عن حسّه العميق، و نظره الدقيق في سبب تسمية الأشياء و دلالاتها الأوليّة و تطوّر موادّها و صوّرها، يوضّح خطأ من يذهب من (الحشوية) و (المجسّمة) إلى المفاهيم الباطلة من الجمود على ظواهر الآيات في التفسير بالرأي، فيقول: «و ليس في الحقيقة جموداً على الظواهر؛ بل هو جمود على العادة و الأنس في تشخيص المصاديق»[١٧].

بيان إعجاز القرآن في الميزان:

و بعد هذه (الفذلكة)[١٨] في تبيان منهجيّة العلّامة في تفسيره نحاول الآن أن نتناول موضوع الإعجاز بالدراستين الخارجية و الداخلية ممزوجتين معاً لنصوص (الآيات الخمس) في سورة البقرة (٢١ - ٢٥) ذات الموضوع (التوحيدي المشترك) في إعجاز القرآن عموماً، و ذلك بتحليل دلالات الآيات و الغاية التي تهدف إليها، (كأنموذج تطبيقي) لمنهجه في التفسير التوحيدي الموضوعي. و هكذا هو يبدأ تفسيرها تحت عنوان (بيان) كسائر مباحثه التفسيرية لمجاميع الآيات ذات السياق الموحّد المشترك: «قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ ﴾ إلخ، لمّا بيّن سبحانه حال الفرق الثلاث (المتّقين و الكافرين و المنافقين) و أنّ المتّقين على هدىً من ربّهم و القرآن هدىً لهم و أنّ الكافرين مختومٌ على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة و أنّ المنافقين مرضى و زادهم الله مرضاً و هم صمٌّ بكمٌ عميٌ و ذلك في تمام تسع عشرة آية (فرّع تعالى) على ذلك أن دعا الناس إلى عبادته...»[١٩] فنراه قبل أن يمضي بشرح دلالات المفردات و التراكيب القرآنية و روابطها اللغوية و النحوية و البلاغية في تفسير هذه الآيات محل البحث؛ يتناول الآيات السابقة عليها أوّلاً كما

(١٧) مقدمّة الميزان، ص ٩.

(١٨) مصطلح يستعمله العلامة في ميزانه باستمرار، و هو(منحوت) من: (فذلك الذى...): «كالتكذية: أى أقول كذا»، ينظر كتابنا (دراسات و تحقيقات)، ص٥.

(١٩) الميزان، ج ١، ص ٤٧.

يعرض للآيات اللاحقة بأسلوب (توحيدي موضوعي) يريك أنّ الآيات جميعاً بل السّور كلها؛ بل القرآن جميعاً كنصّ إلهي واحد منسجم، أو قل سبيكة واحدة تهدف إلى (غاية واحدة) وهي (هداية الناس) جميعاً اختياراً: «هدىً للناس» دعوةً عامة نحو عبودية الرب الخالق؛ غير أنّ الذي يوفَّق إلى ذلك منهم، و يفيد من القرآن الكريم تمام الفائدة هم المتّقون حسبُ «هدىً للمتقين» حيث يقول: «لمّا بيّن سبحانه حال الفرق الثلاث: (المتّقين و الكافرين و المنافقين) و أنّ المتّقين هم على هدىً من ربّهم و أنّهم هم المفلحون، والقرآن هو هدىً لهم (غايةً) و أنّ الكافرين مختوم على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة؛ و أنّ المنافقين مرضى و زادهم الله مرضاً و هم صمٌّ بكمٌ عميٌ، و ذلك في تمام تسع عشرة آية (فرّع تعالى) على ذلك أن (دعا الناس) إلى عبادته و أن يلتحقوا بالمتّقين دون الكافرين و المنافقين بهذه الآيات الخمس إلى قوله: (خالدون)»[٢٠] كرّاً و فرّاً إلخ.

فبتفسيره هذه الآيات الخمس يبدأ بالربط بين الآيات السابقة و اللاحقة بإجمال و إدلال و دلّ و دلال؛ فنجده يلخّص تفسير (تسع عشرة آية سابقة) بعبارات موجزه غير مخلّة و بيانات مفصّلة غير مملّه، بقوله: «أن دعا الناس إلى عبادته» هدياً إشارة إلى (آيات الصوم) في هذه السورة المباركة (البقرة): «هدى للناس» ثم يؤكّد على أنّ الذين يفيدون حقّاً من القرآن (اختياراً) هم المتّقون: «هدىً للمتقين» في أول السورة. و يركّز على كلمتين كاصطلاحين متميّزين يلخّصان هدف الكتب السماوية جميعاً و سنّة الأنبياء و المرسلين قاطبةً و هما: (الدعوى و الدعوة)[٢١]. و يريد بالدعوى ادّعاء النبوّة و لابدّ من إثباتها بالدليل و البرهان عن طريق (المعجزات):

و الدعاوى لولا يقام عليها بيّنات أنباؤها أدعياءُ[٢٢]

(٢٠) ينظر الميزان، ج ١، ص ٤٧.
(٢١) ينظر الميزان، ج ١، ص ٦٩.
(٢٢) دراسات و تحقيقات، موضوع الإعجاز، ص ٦٧.

ثمّ يعرّف المعجزة[٢٣]: على أنّها تحدٍّ لجميع الإنس و الجنّ، و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً مستشهداً بالآيات المختلفة من سورٍ القرآن الكريم في المقام، بعد التبكيت و التقريع و عجز الجميع عن معارضته[٢٤] و عن الإتيان و لو بسورة واحدة قصيرة كسورة الكوثر و النصر و العصر و التوحيد، و بذلك تثبت (الدعوى) و بعد ثبوت الدعوى تصحّ (الدعوة) إلى عبادة الله وفق أوامر الدين و نواهيه؛ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦] -أي ليعرفوني -[٢٥]. و يدلي بدلوه في تفسير هذه الآيات الخمس ملخّصاً تفسير الآيات السابقة في تمام تسع عشرة آية، فيقول: «فرّع تعالى على ذلك» فكأنّ الفكرة عنده و هي الّتي تتضمّنها الكلمة: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[سورة ابراهيم: ٢٤] كما جاء مثلها في القرآن الكريم و ما أروع ثمرة (العبادة) و (العبودية) و الدعوة إليهما: و «العبودية جوهرة كنهها الربوبيّة»[٢٦] و الله سبحانه لايكره العباد على العبودية، بل يريد منهم اختياراً أن يلتحقوا جميعاً بالمتّقين دون الكافرين و المنافقين و يستمرّ في تفسيره هذه الآيات الخمس مركّزاً على (موضوع الإعجاز) بقوله هذا: «فأتوا بسورة من مثله في هذه الآيات الخمس: أمر تعجيزي لإبانة إعجاز القرآن، و أنّه كتاب منزل من عند الله لاريب فيه إعجازاً باقياً عبر الدهور و توالي القرون»[٢٧]. و قد تكرّر في كلامه قدس سره أمر (الإعجاز و التعجيز) و رابطة (الدعوى و الدعوة) كما يستدلّ بتفسيره هذا بفكرة النظم و السياق: context «و هذا السياق يعطي كون قوله: «لعلّكم تتّقون» متعلّقاً بقوله:

(٢٣) ينظر تعريف المعجزة الخالدة عند الشهرستاني، ص ٥.
(٢٤) ينظر التعريفات للجرجاني، ص ٧٤.
(٢٥) أمالي الهادي، ص ٣٦، ط ٢.
(٢٦) أعيان الشيعة، ج ١، ترجمة حياة الإمام الصادق عليه السلام.
(٢٧) الميزان، ج ١، ص ٤٧.

«اعبدوا» دون قوله «خلقكم» و إن كان المعنى صحيحاً على كلا التقريرين»[٢٨].

و بهذا نجده يفيد من (سياق النصوص) و منهجيّة التّحليل و القراءة القرآنية الخاصّة، معتمداً النظرية التوحيدية اللغوية و كأنّه يتّبع آخر ما توصّل إليه علم اللغة الحديث: modern linguistics و ذلك بدراسات المفردات القرآنية واحدةً واحدة من خلال تركيبها في الآيات، و يشير إلى دلالاتها البنيوية المورفولوجية morphological و ربط بعضها البعض في دلالات تركيبية سنتاكتيكية: syntactic ناظراً إلى المعاني السيمانتيكية: semantic من خلال القواعد النحوية و (الدلالية السيميائية) semiotic غيرمتغافلٍ عن الدراسات الأصواتية (الفمويّة) phonetic التّي يعرض لها في مواطن متعدّده من تفسيره، ولاسيّما في (أوائل السور) الّتي وردت فيها (الحروف المقطّعات)؛ لأنّ (الخطاب الإلهي) قد اعتمدها كرموز ذات دلالات و معاني متعدّدة مرتبطة بمعاني السور الّتي وردت فيها، فقد ذكر العلّامة أنّها نيّفت على العشرين[٢٩]، و من خلال المباني هذه ينتقل إلى المعاني (التوحيدية): فيقول: «الأنداد جمع ند كمثل (وزناً) و (معنى)»[٣٠] و بهذا الإجمال الجميل الذي يشبه السهل الممتنع بالدليل، و بهذا الإيجاز الذي يشبه الإعجاز، نراه يذهب إلى الهدف التوحيدي من خلال (السياق) النصّي: contextual بقوله: «و عدم تقييد قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بقيد خاصّ، و جعله (حالاً) من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ يفيد التأكيد البالغ في النهي بأنّ الإنسان و له (علمٌ ما) كيف ما كان لا يجوز له أن يتّخذ لله سبحانه أنداداً»[٣١].

إفادَتُهُ من السياق توحيدياً:

و بهذه النتيجة المنطقية التوحيدية و العقلية المعرفية العرفانية يصل إلى الهدف

(٢٨) الميزان، ج ١، ص ٤٧.
(٢٩) تنظر أوائل سورة الشورى في المقام في تفسير الميزان.
(٣٠) الميزان، ج ١، ص ٤٧.
(٣١) الميزان، ج ١، ص ٤٧.

الموضوعي التوحيدي من السياق: unithetical context و يربط بين هذا النظم المعجز في القرآن الكريم، و النظم المعجز في النظام الكوني العامّ، و يرى أن (التوحيد التكويني) يرتبط (بالتوحيد التدويني) و هما في الحقيقة وجهان لعملةٍ واحدة: two faces of one coin [٣٢] فيقول: «و الحال أنّه سبحانه هو الذي خلقهم و الذين من قبلهم ثمّ نظّم النظام الكوني لرزقهم و بقائهم»[٣٣]. فنجده في هذه العبارات التفسيرية الموجزة يذهب مذهباً فطرياً توحيدياً، و ينهج منهجاً منطقياً سليماً، فيربط كلمة (الناس): بالعبادة و (العبادة) بالرّب و (الرّب) بالخالق الذي خلق الوجود جميعاً، بشكلٍ بنيويٍ تحليلي: analytical structural عند معالجة الآية الأولى، من الآيات الخمس، محلّ البحث و الدرس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[سورة البقرة: ٢١]. و يخلص من كلّ ذلك إلى هدفية (العبادة) من الخلقة، و من هدفية العبادة إلى هدفية (المعرفة) و تراه يفسّر هذا النصّ من خلال سائر النصوص القرآنية و يستشهد بآية: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦] و ينصّ على أنّ معنى «ليعبدون» أي: ليعرفوني[٣٤]، كما يذهب إلى ذلك كثيرٌ من المفسّرين المتعرّضين إلى هذه الآية الكريمة[٣٥].

و هذه الروابط البنيويّة التي يفهمها من (السياق) تعتمد ما يسمّى حديثاً بالمكوّنات أو المؤلّفات المباشرة: immediate constituents سواءاً ما كان بين الأصوات و المعاني أوالمفردات و التراكيب؛ فنراه يفيد من هذا النصّ القرآني العامّ: «يا أيّها النّاس» الخطاب العامّ لكلّ الناس بأنّهم مأمورون بعبادة الله الذي هو (الرّب) بقوله تعالى ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ اختياراً، و يشير إلى هذا (الربط الموصولي) و إلى الأسم الموصول و

(٣٢) و هذه المنهجية هي التي تبتني عليها نظريتنا اللغوية: unithetical linguistics.
(٣٣) الميزان، ج ١، ص ٤٧.
(٣٤) أمالي الهادى، ص ٣٦.
(٣٥) ينظر أمالي الهادى، ص ٣٦.

صلته: «الذي خلقكم و الذين من قبلكم» للترجّي و الرجاء المثمر بالتقوى: «لعلّكم تتّقون» هدفاً خلقيّاً معرفيّاً، و يؤكّد هذا التفسير بقوله: «هذا السياق يعطي كون قوله: «لعلّكم تتّقون» متعلقاً بقوله: «اعبدوا» دون قوله «خلقكم» ثمّ يدع الباب مفتوحاً للاحتمالات الأخرى الواردة في التفاسير السابقة، أو الّتي قد ترد في القابل، فيقول: «و إن كان المعنى صحيحاً على كلا التقريرين»[٣٦] إشارة إلى إفادة الأمر في (اعبدوا) الربّ أو الخالق، و إن كان الربّ هنا هو المربّي و هو الخالق البارئ المصوّر.

تفسير آيات الإعجاز بتحليل تركيبها و نظمها:

ثمّ بعد ذلك يتناول معنى المعجزة و الإعجاز و التعجيز (موضوع البحث) بعد تناوله الآية الثانية من هذه الآيات الخمس الّتي تنصّ على أنّ الّذي «خلقكم» و الذين «من قبلكم» هو الذي «جعل لكم الأرض فراشاً» و «السماء بناءاً» و هو الذي (أنزل من السماء ماءاً) و الهدفية من كلّ ذلك الأمر التوحيدي و النظم التكويني هي هذه (الثمرات) المتنوّعة، بقوله: «فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم» سبباً ترتيبياً (بدلالة فاء العطف الّتي تدلّ على الترتيب)، و يرى من هذه العبارات و الإشارات و الدلالات اللغوية؛ هذه النتيجة (التوحيدية المعرفية) المنطقية «فلا تجعلوا لله انداداً و أنتم تعلمون» و يرى أيضاً أنّ هذه المفردات القرآنية و الكلمات المنظومة بهذا النظم المعجز هذه الغاية المتعالية التي توحيها هذه الآيات و سائر الآيات المرتبطة بها بوساطة (الأسماء الموصولة) وصلة الموصول؛ حيث يأخذ بعضها برقاب بعض إلى هذه النتيجة: أنّ الهدف من هذه العبارات و المفردات القرآنية المنظومة الّتي يهدف إليها الذي «خلقكم و الذين من قبلكم» هو الذي أوجب عبادته فطرياً و عقلياً، و أنّ الهدفية من كلّ ذلك هي (التقوى) و ما أدراكها من غاية سامية و إن كانت (غاية متوسطة في المقام)، و أنّ الهدف من (التقوى) هو (المعرفة السامية): و هي من ألذّ (الثمرات) الّتي أخرجها سبحانه و تعالى (بماء السماء) الذي أنزله، و هو السبب الأساس للحياة

(٣٦) الميزان، ج ١، ص ٤٧.

المادية و المعنوية و (الغاية) من كلّ هذا الوجود: هو (الإنسان الكامل) الخليفة الذي (علّمه الأسماء كلّها)[٣٧] و خلق الأشياء لأجله: «خلقت الأشياء لأجلك و خلقتك لأجلي»[٣٨] لهدف تكميل (الفعل و المفعول) لا (الفاعل) الغني على الإطلاق الذي كان كنزاً مخفياً فخلق الخلق من أجل (المحبّة و المعرفة): «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف»[٣٩] و الإنسان الكامل هو غاية هذا الكنز المخفيّ.

و هذا ما نجده في تضاعيف هذا التفسير التوحيدي الممتاز، فهو يشير إلى هذه الدلالات بهذه الآيات و المفردات الّتي تعتمد الضمير (كم) للناس المخاطبين: (ربّكم، خلقكم، من قبلكم، لعلّكم، لكم، جعل لكم، رزقاً لكم). فهذا الرّب (ربّكم) و الخالق (الذي خلقكم) هو الذي جعل الأرض فراشاً و مهّدها (للإنسان الخليفة) الذي علّمه الأسماء كلّها، و علّمه البيان و (استعمره في الأرض) الّتي أنزل عليها الماء من السماء سبب الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[سورة الأنبياء: ٣٠] و ربط به بين السماء و الأرض، و أخرج بواسطة (الماء) هذه (الثمرات) المادية و المعنوية، لكي يعرج الأنسان عن طريق العبادة و الصلاة الّتي هي (معراج المؤمن) التّقي إلى أسمى الدرجات و بهذه التعاليم السماوية الدينيّة يحصل الربط بين (الفرش) «جعل لكم الأرض فراشاً» و (العرش) «و السماء بناءاً» و استخدم القرآن الكريم هنا كلمة (السماء) بدل (العرش) لكي تتساوق و (تتناسق المفردات) هنا توحيدياً و جرساً و دلالةً و سعةً؛ ولاسيّما بين (السّماء) و (الماء) الذي هو بطبيعته ينزل من الأعالي: السموات إلى النواصي: الجبهات و الجهات المستعدة لكي يثمر الثمرات اليانعة، فدلالة «فأخرج به» الضمير يعود إلى الماء سبب (الثمرات) و الغاية منها هو الرزق المادي و المعنوي، و إذا كان الماء سبباً للحياة، فمسّبب الأسباب هو (الحيُّ الذي

(٣٧) أمالي الهادي، ص ٣٥.
(٣٨) الجواهر السنية، ص ٣٦١.
(٣٩) الكلمات المكنونة، ص ٣٥، للفيض الكاشاني.

لايموت). و الإنسان من دون (رزق) يموت بكلّ المعاني، و الرّازق على الإطلاق هو الله سبحانه و تعالى. و هو الذي ذكر في بداية هذه السورة (البقرة) أنّ القرآن ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ و بوساطة (فلاحة الأرض) مادياً و معنوياً يكونون من المفلحين ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[سورة البقرة: ١ -٥]. و عن طريق (عمران المساجد) بالصلاة و السجود و العبادة، و سائر التعاليم الدينيّة و الأوامر و النواهي الإلهيّة و بها يستعمرون الأرض ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[سورة هود: ٦١] بالمعنى القرآني الإيجابي غير المعنى المحرّف المتدهور للإستعمار اليوم. كلّ ذلك ببركة (العلم) الفطري الرّباني «و انتم تعلمون» فيقول العلّامة قدس سره: «بأنّ الإنسان و له علمٌ كيف ما كان لا يجوز له أن يتّخذ لله سبحانه (انداداً). و الحال أنّه سبحانه هو الذي (خلقهم) و (الذين من قبلهم) ثمّ نظّم النظام الكوني لرزقهم و بقائهم»[٤٠].

تفسيره التوحيدي للإعجاز و التعجيز:

و بعد كلّ هذا الكرّ و الفرّ من (الإشارات العرفانية التوحيدية)، ينطلق العلّامة إلى موضوع الإعجاز تفصيلاً و يفسّر الآية الثالثة من هذه الآيات الخمس: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ و يفسّر (التعجيز) بأسلوب: (إبانة الإعجاز) عن طريق التحدّي و التبكيت و التقريع ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾: فهو يعرض للتعجيز على أنّه أشبه (بالصرفة)[٤١] برأى السّيد المرتضى أى صرفهم و هم غير قادرين على أن يأتوا بمثله. و يشير إلى دور (لن) من ادوات النفى الّتي تفيد (نفى التأبيد) على رأى الزمخشرى و كثير من المفسّرين فأراحهم و خفّف عنهم المؤونة. و لكى يعبدوا الله و يتّقوا بذلك النّار ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾. و ليشير ختاماً إلى بقية هذه الآيات الخمس بالبشرى للمؤمنين ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ الّتي لهم فيها (ازواجٌ مطهرة). و بذلك يلمح إلى أنّ من دلالات (مصطلح

(٤٠) الميزان، ج ١، ص ٤٧.

(٤١) ينظر دراسات و تحقيقات، ص ٧١.

القرآن)[٤٢]: أنّه يجمع بين الدنيا و الآخرة و يعرض لجزاء الكافرين و المؤمنين و سمّي القرآن قرآناً لجمعه بين القرآئن بمختلف اللغات والدلالات[٤٣]، و يختم العلّامة بحث الإعجاز هنا في هذه الآيات الخمس ليعالجه في آيات أخرى أشار لها هنالك و عرض لها بإجمال و إدلال و دلٍّ و دلال.

نبذة في وجوه الإعجاز في الميزان:

و بعد هذه الإلماعات و الإلماحات الرائعة لموضوع الإعجاز و التعجيز يفصل القول في ماهيتها تحت هذا العنوان: (الإعجاز و ماهيته) بشكل عامّ، ثمّ ينطلق بشكل منهجي توحيدي إلى تبيان (إعجاز القرآن) و وجوه الإعجاز المتضمنة للتحدّي و عدم المعارضة و يذكر منها إعجازه (بالعلم) و المعارف القرآنية، و كذلك يشير إلى إعجاز (من أنزل عليه) القرآن. –و هو النّبي محمّدﷺ الذى نشأ في عصر الجاهلية و المحيط البعيد عن كلّ اسباب الحضارة و المدنية مفصّلاً القول في تلكم السلبيّات الّتي لا يمكن لها أن تخرج رجلاً بهذه الأوصاف كمحمّدﷺ من دون مدد الهي و إعجاز ربّاني. و بعد ذلك يجمل البحث في وجوه إعجاز القرآن تحت عنواناتٍ شتّى منها (تحدّي القرآن بالإخبار عن الغيب) و (تحدّي القرآن بعدم الاختلاف فيه) و (التحدّي بالبلاغة) ثمّ يركّز على نكتة كلامية فلسفية يبيّن فيها (حقيقة المعجزة و الإعجاز) على أنّهما لا يناقضان (قانون العلّية العامّ) بل يصدّق القرآن الكريم هذا (القانون العلّي) التوحيدي الذي (يخرق العادة) الطبيعية؛ و لكنّه لاينقض قانون الفطرة و العلّية العامّ في الوجود. فلابدّ من وجود (علّة لكلّ معلول) و (علّة العلل) جميعاً هو الله تعالى: prima causa.

كما يسند كلّ العلل المادية و غيرها بالتّالي إلى الله تعالى و هو الذي يؤيّد (نفوس

(٤٢) تنظر في دلالات القرآن اللغوية و المجازية مفردات القرآن للراغب الأصفهاني و أساس البلاغة، للزمخشري (المادة)، و إعجاز القرآن للباقلاني (المقدمّة).

(٤٣) ينظر علم اللغة التوحيدي (مصطلح القرآن).

الأنبياء) بقوّة الاتيان بالمعجزات و خرق العادات، كدليل على صحّة (دعواهم و دعوتهم). ليحقّ الحقّ بكلماته[٤٤]. و في الوقت نفسه يصرّح بأنّ القرآن الكريم يسند المعجزة إلى (سبب غير مغلوب) و إن كانت تلكم المعجزات تستند إلى الأسباب الطبيعية الظاهرية الّتي تحكي عن (ارادة الله و أمره) و كلّ ذلك بعد التحدّي و عجز الآخرين عن الاتيان بمثلها بقوله: «إذا كان هناك تحدّ تبتني عليه صحة النّبوة و الرّسالة و الدّعوة إلى الله تعالى»[٤٥] و يؤكّد على أنّ القرآن (معجزة خالدة) من ناحية و أنّه (برهان و دليل قاطع على صحة دعوى الرسالة المحمّدية) من ناحية أخرى و بواسطة القرآن تثبت معجزات الأنبياء السابقين الذى قرّر وجودها سابقاً فيقول: «و هذا هو الذي بعث الأمم إلى سؤال المعجزة على صدق دعوى النبوّة... فقد تبيّن بما ذكرناه أولاً التلازم بين صدق دعوى الرسالة و بين المعجزة فإنّها الدليل على صدق دعواها لا يتفاوت في ذلك حال الخاصّة و العامّة في دلالتها و إثباتها و ثانياً أنّ ما يجده الرّسول و النّبي من الوحى و يدركه منه من غير سنخ ما نجده بحواسنا و عقولنا النظرية و الفكرية»[٤٦].

تفنيد القراءات الّتي لاتستند إلى الوحى (الهرمنوطيقة):

و بذلك يفنّد قول من يقول بأنّ النّبوة نبوغ فكري و صفاء ذهني يستحضر به الإنسان (المسمّى نبيّاً) كمال قومه الاجتماعي و يريد أن يخلّصهم من ورطة الوحشية و البربرية إلى ساحة الحضارة و المدينة[٤٧]. فنجده يعرض للرأى المخالف أوّلاً بوضوح ثمّ يردّ عليه بالدّليل و البرهان المنطقي، فانظر إلى هذه الهرمنوطيقا: (hermeneutic) و الفكر المادي غير الإلهي الذي يخالف الحقّ و الحقيقة كيف ينقله بأمانة، و يطرحه كما هو عند اصحابه فيقول بالنصّ الوارد عنهم حرفياً: «أوّلاً أنّ

(٤٤) ينظر سورة الأنفال، الآية ٧.
(٤٥) الميزان ج ١، ص ٦٦.
(٤٦) الميزان، ج ١، ص ٦٩.
(٤٧) الميزان، ج ١، ص ٧٠.

النّبي إنسان متفكرّ نابغ يدعو قومه إلى صلاح محيطهم الاجتماعي و ثانياً: أنّ الوحى و انتقاش الأفكار الفاضلة في ذهنه و ثالثاً: أنّ الكتاب السّماوي مجموع هذه الأفكار الفاضلة المنزّهة عن التهوسات النفسانية و الأغراض النّفسانية الشخصية و رابعاً: أنّ الملائكة الّتي اخبر بها النّبي قوى طبيعية تدبر الأمور الطبيعية، أو قوى نفسانية تفيض كمالات النفوس عليها، و أنّ روح القدس مرتبة من الرّوح الطبيعية المادية تترشح منها الأفكار المقدسة... (و على هذا الأسلوب فسّروا الحقائق الّتي أخبر بها الأنبياء كاللوح و القلم و العرش و الكرسي و الكتاب و الحساب و الجنّة و النّار بما لايلائم الأصول المذكورة) و خامساً: أنّ الأديان تابعة لمقتضيّات اعصارها تتحول بتحولها. و سادساً: أنّ المعجزات المنقولة عن الأنبياء المنسوبة إليهم خرافات مجعولة أو حوادث محرّفة لنفع الدّين»[٤٨].

ونحن انّما فصّلنا القول في هذا الجانب من منهجه في النقد و التفسير؛ لأهميّة ما تفرّد به العلّامة قدس سره في أسلوب الردّ العلمي و النقد المنطقي للأفكار المنحرفة الّتي تتعالى اليوم هنا و هناك في (فهم الوحى) و (معنى النّبوة)[٤٩] المتأثرة بآراء الغربيّن أو المستغربين و الذين هم من انصاف المثقفين الذين يظنّون انّهم بلغوا الذروة في العلم و الفلسفة (و إن حملوا الشهادات العالية) فهم من مصاديق قول الشاعر:

وقلْ لمنْ يدَّعِي في العِلم فلسفةً حَفِظْتَ شيئاً و غابتْ عنك اشياءُ

فهو رضوان الله تعالى عليه يقول ناقداً و يصرح منتقداً –و هو النيقد الحكيم– و كأنّه ينقد بدقة بعض آراء المعاصرين لنا اليوم فيقول: «هذه جمل ما ذكروه. و النّبوة بهذا المعنى؛ لأنّ تسمّى لعبة سياسية أولى بها من أن تسمّى نبوة الهية، و الكلام التفصيلي في اطراف ما ذكروه خارج عن البحث المقصود في هذا المقام و الذى يمكن أن يقال فيه هاهنا أنّ الكتب السماوية و البيانات النّبوية المأثورة على ما بأيدينا

(٤٨) الميزان، ج١، ص ٧٠.
(٤٩) الميزان، ج ١، ص٧٠.

لا توافق هذا التفسير و لا تناسبه ادنى مناسبة. و إنّما دعاهم إلى هذا النوع من التفسير إخلادهم إلى الأرض و ركونهم إلى مباحث المادة، فاستلزم إنكار ماوراء الطبيعة و تفسير الحقائق المتعالية عن المادة بما يسلخها عن شأنها و تعيدها إلى المادّة الجامدة»[٥٠]. و بهذه النظرية التوحيدية الموضوعية في التفسير و المنهجية الملتزمة بها، و النابعة عنها في التأويل، و الّتي عالجناها إجمالاً و في هذه المقالة المتواضعة نختم حديثنا آملين أن نوفّق في قابل إلى استيفاء الموضوع حقه و أداء البحث ما يستحقه.

نتيجة البحث:

لقد تبيّن ممّا سبق إجمالاً أنّ الكلام على موضوع الإعجاز كلام خطير و جدير بالبحث و التنقير، تتصل أبحاثه بموضوعات كلامية فلسفية تباشرعقيدة الأمّة و موقفها من (النّبوة) و (النبيّ) من ناحية و بالفصاحة و البلاغة و نظرية النظم و السبک و الأسلوب البياني و القيم الجمالية و الجلالية، و المعارف القرآنية من ناحية أخرى.

و الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى مبشّرين و منذرين اصطدموا بمشاكل و عقبات اضطرتهم إلى (تحدي المعاندين) و المنكرين و الكافرين و المنافقين؛ فكان لابدّ من دعم سماوي يقوم دليلاً على صدق نبواتهم (دعوىً) و صلاح (دعوتهم) عقلاً. و البرهان الساطع و الدليل القاطع على ذلک كلّه هو (المعجزة) الّتي يأتون بها للناس جميعاً و لا تكون المعجزة معجزة إلّا بعد (التحديّ) و سلامته من (المعارضة)[٥١].

و لولا دليل (المعجزات) لكثر الأدعياء و المتنبّون، و انقاد السُّذج من الناس وراء الأحابيل و الأباطيل[٥٢]. و لاسيّما أن منصب النّبوة منصب ديني و دنيوي، و زعامة عالمية كبرى يطمع فيها الطامعون و يطمح أليها الطامحون؛ لذلک وجب

(٥٠) ينظر التعريفات للجرجاني، ص ٧٤. دراسات و تحقيقات ص ٧٢.
(٥١) تنظر التعريفات للجرجاني، ص ٧٤. دراسات و تحقيقات ص ٧٢.
(٥٢) تراجع مقدّمة الميزان.

على الله (لطفاً) أن ينصر دعاته بالمعجزات؛ و يفضح (الأدعياء) بالعجز، و هذا ما صرّح به القرآن الكريم من إحقاق الحقّ: ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [سورة الأنفال: ٧] و ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٤٢].

و إلى ذلك يشير السيّد هبة الدين الشهرستاني في تعريف المعجزة بأنّها: «عبقرية من أعمال النّبي متى سطع نورها على أبصار الناظرين أورثت فيهم دهشةً تسوقهم إلى الإذعان»[٥٣].

و كانت طبيعة المعجزات تتناسب مع الأقوام و الأمم السابقة و شيوع العلوم في زمانها[٥٤]. و هذه سنّة الله تعالى في سيرة (أنبيائه) و محجّته الواضحة في رسله. فكانت مثلاً (العصا و اليد البيضاء) الّتي ظهرت على يد موسى عليه السلام؛ لشيوع السحر و السحرة في زمانه و معجزات عيسى عليه السلام إبراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى؛ لانتشار الحكمة و الطب في عصره.

و أمّا معجزة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله فالقرآن الكريم، و هو المعجزة الخالدة لشيوع البلاغة والفصاحة بين العرب، و استشهادهم بالأمثال و الأشعار و الخطب، و ما إلى ذلك. فهي معجزة كلامية خالدة باقية (دعوى و دعوة) و متجدّدة في كلّ عصر و مصر؛ لما يظهر من وجوه الإعجاز الطريفة الّتي تؤيّدها العلوم الحديثة؛ لكن أشهر هذه الوجوه، أو من أشهرها هو الإعجاز القولي و النظم الكلامي: «فهو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر و يعجزهم عن معارضته»[٥٥].

و قد أبدع في نظرية (نظم القرآن) هذه عبد القاهر الجرجاني المتوفي (٤٧١ هـ) و خلاصتها عنده هي (توخّي معاني النحو) الّتي تشبهها النظرية البنوية المعاصرة في علم

(٥٣) المعجزة الخالدة، ص ٥.
(٥٤) تراجع مقدّمة إعجاز القرآن للباقلاني. المسمّى: النكت في إعجاز القرآن.
(٥٥) التعريفات للجرجاني، ص ٧٤.

اللغة structuralism غير أنّه يمتاز عن سائر القائلين من المعاصرين بأنّها: (توّخي معاني النحو الموصلة إلى فهم إعجاز القرآن بالحسّ الروحاني و الذوق البلاغي[٥٦]. و قد عرض لها تطبيقاً في كتابيه الشهيرين: (دلائل الإعجاز و اسرار البلاغة)[٥٧].

و قد كثرت اليوم البحوث الأكاديمية و الدّراسات الجامعية و الحوزوية الّتي تتّخذ من مناهج البلاغة و علمائها ميداناً فسيحاً لعرض جوانب من (إعجاز القرآن) و أثره الخالد، و كمثال على ذلك بحث الدكتور مصطفى الصاوي الجويني: (منهج الزمخشري في تفسير القرآن و بيان إعجازه) و هناك دراسة مستوعبة (لتاريخ فكرة إعجاز القرآن) عبر العصور و إلى عصرنا العتيد[٥٨]. و إنّ مقالتنا هذه لتمتاز في نظرنا ببيان (منهجيّة العلّامة الطباطبائي) و تطبيقاتها على إعجاز القرآن الكريم في ضوء علم اللغة التوحيدي: unithetical linguistics الذي طبعناه في كتاب منفرد و مقالات متعددة في مختلف اللغات.

من أهم المصادر و المراجع:

١. الزمخشري، أساس البلاغة، ط. صادر، بيروت.
٢. عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة، ط. دار المنار، القاهرة.
٣. الباقلاني، إعجاز القرآن، ط. القاهرة.
٤. الدكتور خفي محمد شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية و التطبيق، ط. القاهرة.
٥. الخطيب، إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لأسرار البلاغة و معاييرها، ط. القاهرة.
٦. السيد محسن الأميني العاملي، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.
٧. العلّامة التبريزي، أمالي الهادي، ط٢. طهران، ١٤٢٧هـ. -٢٠٠٦ م.

(٥٦) تنظر دراسات و تحقيقات، ص ٧٥ و كذلك مقدّمة دلائل الإعجاز و اسرار البلاغة.
(٥٧) المصدر السابق، ص ٧٧.
(٥٨) تراجع مقدّة تاريخ فكرة إعجاز القرآن للحمصي.

٨. الحمصي، تأريخ فكرة إعجاز القرآن، ط. القاهرة.
٩. ابن الزملكاني، التبيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب، ط. بغداد.
١٠. الشريف الجرجاني، التعريفات، ط. القاهرة.
١١. محمد بن الحسن الحر العاملي، الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، ط. منشورات مكتبة المفيد، قم.
١٢. صدر الدّين محمد الشيرازى (ملاصدرا)، الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة، ط. (انتشارات بنياد حكمت اسلامى ملاصدرا)، ١٣٣٨ هـ. ش.
١٣. الدكتور محمد على الحسيني، دراسات و تحقيقات، ط. دار التراث الإسلامي، بيروت، ١٩٧٤م.
١٤. الدكتور محمد على الحسيني، علم اللغة التوحيدي بين النظرية و التطبيق، ط. قم، ١٩٩٧م.
١٥. الكاشف عن الفاظ نهج البلاغة، ط. طهران.
١٦. الفيض الكاشاني، الكلمات المكنونة، انتشارات فراهاني، ط. طهران.
١٧. ابن منظور، لسان العرب، ط. بيروت.
١٨. أبوعبيدة، مجاز القرآن، ط٢. تحقيق محمد فؤاد سزگين. ط. ١٩٩٧م.
١٩. الرازي، مختار الصحاح، ط. القصيباتي.
٢٠. الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ط. دار الكتب الإسلامية، طهران.
٢١. السّيد هبة الدين الشهرستاني، المعجزة الخالدة، ط. بغداد.
٢٢. ابن فارسي، معجم مقاييس اللغة، ط. القاهرة، ١٩٤٨م.
٢٣. الشيخ عبّاس القمي، مفاتيح الجنان، ط. مكتب القرآن، ط. طهران.
٢٤. الراغب الإصفهاني، مفردات القرآن، ط. القاهرة.
٢٥. تفسير ابن عبّاس، المقباس، ط. القاهرة.